

الكتاب الأول

نقد المعري لعلاقات الجنس

الفصل الأول

عدو المرأة

(١) نقد المعري للمرأة

كان موضوع المرأة من الأمور التي سكب المعري كثيراً من كلامه فيها . بل يكاد يكون أبرز ما عُنِيَ به ، وحاور نفسه فيه ، وأطال ذكره ونقاشه . وما كان للمرأة أن تبدو حفية بهذا الذكر ، ولا راضية عنه . لأن المعري عرض على الملائكة كل مثلبة ونقيصة في المرأة ، فنقدتها نقداً غنياً لا يعرف هوادة الذين يعالجون مواضيع النساء .

لم ينظر إليها كأم حنون ، ولا مرضع حاذبة . ولا ربّة دار مربية ، ولا زوج صالحة ، وإنما تطلع نحوها بالنظر الشرر ، فرآها من الجانب الذي تبدو فيه مثالبها فأمسك بهذه المثالب واحدة بعد واحدة ، وراح ينقدّها حتى أتى عليها جميعاً .

ولا ينبغي أن نعلل نقده لعيوب المرأة ببعده عنها ، وجهله إياها . فإن أمّاً ولدت أبا العلاء ، وخلته بعد موتها باكيّاً عليها ، راثياً لها بشعر يفيض دمعاً وحزناً ، لا ينبغي لمثله أن يجحد فضل الأم . ولقد تمنى أبو العلاء

لو حَسَمَ موته ثم نادى مؤذن يوم الحشر فهفت عظامه وهى بالية فى التراب
إلى عظام أمه وهى رميم من طول الشوق والمنأى ، فبكى بعضه إلى بعضها
فهل المتلاقيين بعد طول السفر فقال (١)

ووافتنى إلى الأجداث أمٌ يعزّ على أن سارت أُمّى
فليت أذين يوم الحشر نادى فأجهشت العظام إلى العظام

فجعه موتها فظال عليه حزن كلما رث تجدد ، حتى لو أنه شرح فيه لانبجحه
ووصف به وجده لأقنى الزمان بالأحزان . فكان مما كتب إلى خاله أبى القاسم بن
سبيكة عن لوعته لفقد أمه (٢) « وحزنى لفقدها كنعيم أهل الجنة ، كلما نفد
جُدد ، وشرحه إملالٌ سامع وإفناءً زمان » .

فشاعر هذه حال قلبه الباكي على أمه ، وهى من النساء ، يُستغرب أن تملئ
عليه البغضاء نقد المرأة ، ذلك النقد الذى ما أثر عن أحد قبله ، ولا عرف
فى العرب من أحد بعده .

والواضح أن هذه النقمة على النساء كانت منه بعد رجعته من العراق وفى
كهولته وشيخوخته . ولم يؤثر عنه فى شبابه شعر يذم فيه النساء كذمه
إياهن فى اللزوميات .

ولا شك أنه عرف حال المرأة فى أمصار الشام ، ثم فى بغداد خاصة .
وكانت بغداد يوم زورته لها فى زهوة أيامها . وقد طال ماحدثنا مؤرخو
الأدب الأقدمون والمحدثون حديث تلك الفترة عن أخبار الخلفاء والمختشين
والمجان . وما كان لهم من اللهو والمقاصف مع النساء . وما كانت تتمتع به
المرأة العراقية من حرية فى السمر والغناء ، وما كان يرى فى مجتمع العرب من
الجوارى اللواتى لم يخل منهن بيت عامر ، وقد اشعن الخمرة والهوى .
إن عالماً هذه طحمتة الفاسدة ، وهذه نساؤه الماجنات ، قد أحدث فى

(١) شرح التنوير لسقط الزند ط . المعارف ١٩٢٤ ج ٢ ص ١١٦

(٢) رسائله ط بيروت ص ٦٩ واكسفورد ص ٢٩

نفس المعرى الصالح ، الذى تقشف واعتزل الناس ، نقمة على المرأة . فأرسل على لسانه ذلك النقد الزعاف لها . ومحتمل أن تكون هنالك عوامل ثانية سأحاول استنباطها فى الكلام على نزعة أبى العلاء الجنسية .

وكيف دار الأمر فإن المرأة فى عصر المعرى كانت على حال توجب النقد . وينبغى أن نقر بأن العهد العباسى الذى انصرف فيه خلفاؤه وأمرأؤه إلى شؤون السياسة وفتنها جعلهم يرمون جبل المجون على غارب الأمة . حتى بدت أواخر أيام العباسيين متداعية الأخلاق ، مؤذنة بالانحلال ، شأن الأسف فى نهاية عهودها بالمدينة ، كقديم أثينا وروما وحديث باريس . فوجب أن تستهدف المرأة فى مثل هذه العصور إلى نقد المصلحين الذين يرومون الأخلاق لبقاء الأمم . ومن أجدر من حكيم المعرة بمثل هذا الإصلاح الاجتماعى ، والمرأة فيه عمد الخيام ، وركن البناء . وقد يعلل نقد المعرى للمرأة ، بمذهبه فى نفى الزواج وإفناء العالم ، لأنه يرى فناء الدنيا وإهلاكها بتعطيل النسل ، وإبادة المواليد ، فيكثر منه مثل قوله فى اللزوميات .

كوفى الثريا أو خضار — أو الجوزاء أو كالشمس لاتلد

فلتلك أشرف من مؤنثة نجلت فضاق بنسلها البلد

فإذا عرفنا أن دوافع نقده للمرأة نزعة النسبية ، ونقمة على مجانة عصره ومجتمعه ، ظهر لنا نقده وفق هذا الاستقرار نقداً (ذاتياً) وليس (موضوعياً) وصح أن نصنفه قسمين :

١ — نقد لأخلاق المرأة .

٢ — نقد لطبيعة المرأة .

(٢) أخلاق المرأة

لقد جنى جمع التأنيث على المرأة عند المعرى . فهو حين شاء وضعها فى ميزان نقده وجد السكفة عديدة . والقسطاس قائماً . فنظم قصيدتين مطولتين

على روى التاء وردف الألف ، وقليلًا ما نظم الطوال في اللزوميات . فجمات .
قوافي تينك القصيدتين جموع تأنيث . وأعانت أبا العلاء على نقد النساء .
هجم بالتلوام على المرأة ، فكانت أول دعوة له في تأنيته الثانية إهمال
السلام عليها ، والرضن بالإيماء إليها بالتحية . فإن من أخلاقها التظلم والنشكى .
وهي شر ظالمة . فقال :

ولا ترجع بإيماء سلاماً على غيد أشرن مُسلماتِ
أولاتُ الظلم جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلماتِ
على أن التظلم من خلق المرأة ، وفي ضعفها ما يدفعها إلى الشكوى فتكثر
منها سجايا التظلم .

ولكن ماهو الظلم الفادح الذي جئن به لدى المعرى ؟ هو ولا ريب :
(ولادة الإنسان) فمن سر بقاءه ! ولهذا يراهن أبو العلاء شراراً ظلمات .
(جئن بشر ظلم)

وهن عنده فائلات الرأي ، ولو غلبن في الجدل ، لأنهن « بغير ألباب » ،
فإذا قال هذا عنهن فقد وصهن بأكثر ممن قال (إنهن ناقصات عقل ودين)
لأنه يراهن بلا لب أصلاً كما يقول :

يُفَنِّدن الحليم بغير لب وهن وإن غلبن مفندات

وفي هذا جور ظاهر في نقده جدل المرأة وتفنيدها لأراء الرجال .
إذ كيف يصح في القياس أن تكون مفندة إن كانت الغالبة في الجدل
والمالكة للسداد .

وتكاد تكون الثانية الأولى مقصورة برمتها على نقد المعرى لخلق المرأة
بينما جعل أبو العلاء الثانية الثانية مزيجاً من نقده لخلق المرأة وطبيعتها .
أمسك أبو العلاء بأخلاق النساء واحداً واحداً ، فإذا نقد اجتراحهن
المآثم قال : (باختيارهن) . وهو في رأيه الفلسفي يقول بالاختيار وينفي
الإجبار في الأفعال الإرادية فمن قوله في هذا الذهاب :

وتخالف الأهواء هذا مدع فعلا وذلك دينه الإيجاب
فهو لم يعتقد بتعطيل إرادة العبد . وإنما بنى كل نقده الاجتماعي على
اختيار الأعمال فلو قال بالجبرية لبطل نقده كله وانتقض . وهو إن قال
بالإيجاب فقد جعله في الأمور التي لا قبل للإنسان بها ، ولا تكون برأيه وأمره ،
كالولادة والموت والحظوظ والأقدار فقال :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياى فهل لى بعد تجبير
وقد قطع الرأى فى الاختيار بقوله :

كيف احتيالك والقضاء مدبر تجنى الأذى وتقول إنك مجبر
بجناية المرأة المآثم إنما هى باختيارها :

تقلدت المآثم باختيار أوانس بالفريد مقلدات
وهن فى معياره إذا عوتبن حنسن بليدات . وإن عاشرن الرجل الجليل
أضعفنه . ولكن حين أوفى بنقد أخلاقهن على الكذب وهو أم خلاتهن ،
ومعدن صفاتهن ، مربيه لماماً فأجمل نقده له بأنه العادة التى عرفت بها النساء .
لكنه قيد الكذب بطائفة من النساء المتعودات الحنا فأشفق وعدل عن
التعميم إلى التخصيص فقال :

مضت لعوائد الكذب المورثى سوادك بالحنا متعودات
ولما عرف من أخلاقهن أنهن يأكلن التراب ، وذلك أنه يعرض لهن ما يعرض
للحوامل فينقعنه بأكل حجارة من التراب (١) لم يلهن فى ذلك لأنهن قد
شفينه فى بعض رأيه فلقد اشفق على البرايا أن يأكلها التراب وهى دفينه فيه
فكان أكل النساء للتراب جزاء له عن البرايا . وقد أخرج نقده لأكلهن التراب
مخرج الاستفهام وهو ضرب من سخريته فى النقد فقال :

أجازين التراب عن البرايا بأكل شخوصها المتجسمات

(١) أكل التراب خلة معروفة فى بعض نساء الشام الى اليوم

وسنرى مذهبه الساخر وتهكمه اللاذع في السكتاب الرابع من هذه الرسالة.
ومن نقد أبي العلاء لأخلاق المرأة (طلبها للزينة) و (ميلها للزواج) .
وقد خرج بذلك على غرائز الإنسانية . فهل في الرجال من يميل إلى لبس
الأساور والتحلل بالأقراط ، وهل فيهم كثير عازفون عن الزواج عزوف
أبي العلاء ؛ حتى يكون من نقائص المرأة حب الزينة وطلب البعولة . وما
خلقت الزينة إلا لها ولا كانت البعولة إلا من أجل النساء
لكنه نظر إلى أبعد من ذلك في الأخلاق ، وهو أن الفتاة إذا طلبت
الزواج ولم تجده ، وأرادت الزينة ولم تحصل عليها ، جرهما هذان الفاتنان
إلى مزالق الضلال فقال في طلبها البعولة والحلى .
يردن بعولة ويردن حلياً ويلقن الخطوب ملوّمات
ويراهن غير مدافعات عن حوزة الحى يوم حرب ، ولا يعرفن الإغارة
مع المغيرين .

والعجب أن أبا العلاء كان عارفاً بأخبار النسوة اليعربيات اللاتئ كن
يخضن حومات الوغى مع الرجال في مغازى الجاهلية والإسلام . فلم يشفعن
لديه بأخواتهن الخلوف في الحى يوم الغزاة . ولورد إلى عصرنا في زحام
هذه الحرب البارحة التي عمت الدنيا ورأى جيوشاً من النساء في لباس واحد
وكل منهن متمكية ، شاكية السلاح ، عليها عتاد الحرب تجوس خلال الصفوف
بين الحديد والنار ؛ لكان له رأى آخر يعدل به عن نقده للمرأة ولا يمسى به
مع الشاعر القائل :

كتب الطعن والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول
وهو يتبع بيته السابق بقوله :

ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارة متغشيات
ثم يتقصى أخلاق النساء بنقده اللاذع حتى يصل إلى صلاتهن ونسكن
فلا يرى في قيامهن بذلك أماناً من اقترافهن المآثم إذ يقول :

وليس عكوفهن على المصلى أما نأ من غوارر محرمات
لكنه في هذه التائية اللاذعة التي شن فيها على المرأة حرب نقده وأزجي
الصفوف تلو الصفوف ؛ قد فاته أن يذكر (كيد النساء) هذا الخلق الذي
تمتاز به المرأة من الرجل . ويكاد يكون قوام المفساسد في أخلاقها وأظهر
سجايها . فكم جر من مفاتن وأولع من هيب . وقد صدق فيه قول القرآن
السكريم : (إن كيدكن عظيم) .

ولا يصلح عنده دخول الصبي على النساء مذ يكون ابن عشر سنين
خوفاً أن يقع في شراكهن المهلكة فيقول :

إذا بلغ الوليد لديك عشرأ فلا يدخل على الحرم الوليد
ألا إن النساء حبال غيى بهن يضيع العقل التليد
ولعمري إن في منع الوليد بعد العشر من الدخول على النساء لتبليها
لغرائزه الغاشمة ، ومدعاة إلى دخوله عليهن . ولم يفت أبا العلاء نقد المرأة
في رسالة الغفران (١) فقد جعل الشيخ ابن القارح يمر في الجنة بعاقمة الفحل
فيستحسن له أبياته في وصف النساء وإيثارهن الزوج الغنى الشاب وزهادتهن
فيه حين يفتقر ويشيخ ، فيذكر قوله عنهن في الدار الأولى :

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث وجدته وشرخ الشباب عندهن عجيب

(٣) طبيعة المرأة

لم يكتف المعري بنقد خلق المرأة وتقنيده ، وتجريدها من كل خير ونفع
ذلم ينسب إليها فضيلة من الفضائل ، وإنما تعدى ذلك إلى نقد طبيعتها
وخلقها وجمالها . وجد أنها لا تصلح للحياة الاجتماعية فجأها حرب على الرجل .
جنودها الفتنة ، وأعلامها الضلال ، وسلاحها المعلم هو الأساور التي زادت

بها وسامتها غيباً ، وجمالها فتوناً . لم تقنع بما خلع الله على وجهها من احمرار
الوجنات ، فعنّمت البنان بلون الورد

وظاهر ، أنه يريد للمرأة الجمال الطبيعي الذي تسخني به عن الجمال المصنوع
وترغب فيه عن الحسن المجلوب بالتطرية . ومن هاهنا يمت بصلة في هذا
المعنى إلى نظر المتنبي لجمال المرأة ورأيه فيه ^(١) فيقول في تائيته :

فوارسُ فتنة أعلام غيِّ لقينك بالأساور معلبات
وسامٌ ما اقتنعن بحسن أصل فجنك بالخطاب موسمات
رأين الورد في الوجنات حسماً فغادين البنان معنّيات

وهو لا يستطيع أن يفر من النازعة الكبرى المقيمة على نفسه ، وهي
اجتواؤه التوليد والنسل . فلذا نجده يقيم ميزان نقده في بهرة هذه الغريزة
الخلقية فيهوّل على الرجال أرزاء الزواج ومصائب البنين ، ونكبات البنات ،
وبؤس التبعات فيعرضن أيامي بعد موت الأزواج ، ويصف مواليدهن
بالعداوة ، ويخيف المجتمع من عار يلحقن ، ومن عاد يعدو عليهن :

صحنك فاستفدت بهن ولداً أصابك من أذاتك بالسّمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك من نوائب مسقامات
وإن تعط الإناث فأى بؤس تبين في وجوه مقسمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيسا للنسوة المتأيمات
يلدن أعادياً ويكن عاراً إذا أمسين في المتهمّيات

فإذا وضع بين يديك هذا التهويل لخطوب المرأة ، وذاك التجسيم
لنقائصها ؛ حرّمها بنقده هذا العنيف من حق الحياة ، ولعله استحي أن يقول
بوأدّها ، فقال بدفنها ؛ في بيته المشهور وهو خلاصة حكمه عليها ، وعصارة
نقده لوجودها .

(١) فيما يأتي من هذا الكتاب يبين تأثر المعري بأبي الطيب ومشاكلة الراي عندها في
بعض النقد المجمع .

فدفن والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى الميكرمات
ولعله احتسب بالحوادث الفاجعات . فإن تلك هذه الفواجع أخلاق
المرأة ومثالبها التي أفرط في تعدادها ؛ فلن يكون ذلك من قبيل الاحتراس ،
وإنما هو جملة حاليّة يحمل بها على دفن المرأة ويبرر فعلته .
وتساهل في دفنهن فلم يقيده بالحوادث الفاجعات وإنما جعل لبسهن
الأكفان ومسكنهن بالقبور خيراً من زينتهن في السكك ومسكنهن في
الحدور فقال :

ودفن الغانيات لهن أوفى من السكك المنيع والحدور
وخشى أن يحسب الناس نقده مصبواً على المرأة المسلمة وحدها ؛ فقال
في آخر التائية .

وساؤ لديك أتراب النصارى وزعينا من يهود ومسلمات

الفصل الثاني

مثالية المرأة والزواج

(١) كيف يريد المعري المرأة

لا جَرَمَ أن مرام النقد طلب السكّال . فهل طلب المعري السكّال للمرأة بعد أن نقدها . لا أحسب التنقيير في كل شعره يجدي في إيجاد مذهب له في بناء المرأة . لأنه يرى في الحياة هدمها فكيف تريده على بنائها . ولو حصل في أيدينا كتابه المفقود الذي سماه (تاج الحرة في عظات النساء)^(١) لا استخلصنا له رأياً في تكوين أخلاق المرأة . وبحسبنا أن نتخلل نقده للمرأة لنعرف كيف يريدّها أن تكون .

لا تثريب عليها عنده أن تكون ناسجة ثوبها بديلاً من أن تكون بارية قلبها . وأن تأخذ تلاوة القرآن عن النساء العجائز اللواتي سقطت أسنانهن ، ومالت أشداقهن . وإن كان لابد للنساء من تأديب الرجال ؛ فليكن شيخهن طاعناً في السن ، أبيض اللحيين ، مرتعش اليدين فيقول :

فحمل مغازل النسوان أولى	بهن من اليراع مقلبات
ليأخذن التلاوة عن عجوز	من اللأئي فغَرْن مهتّمات
ولا يُدنّين من رجل ضرير	يلقهن آياً محكمات
سوى من كان مرتعشاً يده	ولمستّه من المتشغّيات

وسياق قصده في الرجل الضرير أن يكون ذلك الشيخ المرتجف ، وقد يعود مناقضاً نفسه فيطلب للمرأة الزواج ، ويرى البعل لها راعياً ، وعليها

(١) ذكره ياقوت في معجم الأدباء ج ٣ ص ١٥٠ . وذكره مرجوليوت في رسالته عن أسماء الكتّاب التي ألفها المعري ط بالبرمو ص ٢

حافظاً . وقد سلف منه في ذات التائية أن ضاق صدرأ بطلب المرأة للبعولة .
فقال بعد ذلك :

وما حفظ الخريدة غير بعلى تكون به من المتحرمات
فإذا انتهى من أمره ونهيه فيما يتعلق بتعليم المرأة، ورأى بعد ذلك الحفاظ
عليها بالزواج قفى على آثار هذا أموراً قد اعتقد أنها مفسدة للمرأة كذهابها
إلى الحمام . فإن بمغداها إليه ورواحها منه ما يعرضها على الأناظر القانصة .
ولعله تأثر بأبى الطيب الذى كان يرى هذا الرأى ويفضل النساء البدويات
على الحضريات لأنهن لا يذهبن إلى الحمام ، ولا يخرجن منه باديات العراقيب
الصقيلة متمايدات الأوراك ، فكان من قول المتغنى وهو يعنى هؤلاء البدويات :
ولا خرجن من الحمام مائلة أوراكن صقيلات العراقيب
فإذا كان أبو الطيب تنقص الحضريات لاصطناعهن الحسن بالنظرية ،
فإن نقد المرأة من وجهة الجمال الطبيعى والجمال المصنوع ، أما أبو العلاء فقد
نقد المرأة ومغداها إلى الحمام من وجهة الأخلاق . فجعل ذهابها إليه شراً ،
وأشد منه أن تترك وحبلها على غاربها .

وهو يريد المرأة إلى ذلك أن تمضى في مشيتها هادئة مطمئنة فلا تحرك
يديها بأكمامها ولا تتطيب فيعقب عطرها في الدروب . وينبغى لها أن تصلى
في بيتها فلا تزور المسجد فإن الخيبة في ذهابها إليه وأتمامها فيه ، ثم يعود إلى
أعنف من ذلك فيحملها المعزل حتى يأتيا وفد الحمام .

شر على المرأة من حمامها إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في أكمامها تفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إمامها تأتم والخبية في اتمامها
وحملها المعزل في إتمامها أوفى بما تعقد من زمامها
هذا دأب المعرى في كل سائحة تكلم فيها عن المرأة . أرادها كذلك
إصلاحاً لحالها في زمنه وإرضاء لرأيه . وهو يريد عقيماً لمن يتغيبها
قرينة فيقول :

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة خير نساء العالمين عقيمها

وهو إن رضى بالزواج وسأح فعلى شرط أن تطيع المرأة زوجها ولن
يمحو معصيتها للزوج حرجها واعتبارها ، وقد يعود فيأمر المرأة بنبد العطور
في نثره كإنهاها في شعره فيقول :

(لا أحمد نساء عصين الأزواج وقعدن على ظهور الركائب حَوَاجَّ
البيت ومعتبرات ، فائستين الله في نفوسكن ، وإذا غدوتن للحاجة فغير
عطرات) (١) .

وقد يتقصى المرأة حتى في عبادتها فلا يريد لها فيها رافعة الصوت بالدعاء لله
فيوصيها بإخفائه فيقول (وعليك بالهينة في ذكر الله) .

٢) نظرية النسل بين مالتوس والمهرى

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد ظهر العالم الإنكليزي
الاقتصادي روبر مالتوس (٢) بنظريته في النسل والمواليد فأثار دهشة العالم .
وقد شبه مالتوس المجتمع الإنساني بمادة جلس على أرائكها أناس أخذ كل
منهم حولها مكانه . أقبلوا على الطعام ، فبين أيديهم شبع وري ، ولهم
من الطعام والشراب ما يشتهون ويسخون . وما لبثوا أن أتاهم جائع فأشفقوا
عليه ورثوا لحاله ، فأفسحوا له بينهم مكاناً . فأقبل معهم على الطعام وما كادوا
يفعلون ، حتى جاء رجل آخر ثم تبعه ثالث فراجع ، وقفسي على آثارهم آخرون
بجاهد هؤلاء الواغلون وزاحموا بالمناكب حتى احتلوا محلا لدى المائدة . ثم
دمر فقراء ومعدمون بعدهم فشققوا الصفوف إلى الغذاء الذي دب إليه
النفاد . وانقلب عن المائدة ناس فجاء بعدهم ناس زادوا عليهم عدداً ، وكانوا
دونهم مالا ونسباً . وكان بجانب المائدة (مالتوس) هذا الاقتصادي الجبار

(١) الفصول والغايات ، الطبعة الأولى ١٩٣٨ ص ١١٧

(٢) ولد سنة ١٧٦٦ وتوفي ١٨٣٤

يفكر فيما سيؤول إليه حال المأدبة ، فكان منتوج حسابه أن سيأتي وقت عليها يقتتل الآكلون فيه على كسرة من الخبز .

لقد ضرب مالتوس هذا المثل تبياناً لحال العالم عنده ، إذ رأى أن المواليد في عمر الدهر ستزيد على المطّرد ، ويعم فيها العدد ، وعندئذ يكون الويل والثبور ، فإن الإنسان يفقد يومئذ قوت يومه فيسمود المجتمع الفقير ، ويطفح فيه الشقاء والبأساء ، وتذب المجاعات في الجماعات ، وتسكث الجنايات ، وتندلع الثورات .

فلكى تعيش الإنسانية في أمن ورغد ينبغي وقف التيار البشري الجارف الذي نسميه (المواليد) . هذا التيار الذي يقذف بالإنسانية إلى دنيا الشقاوة والمصائب . والعلاج الحاسم واحد من الأمرين المروّعين : إما (تحديد النسل) أو (تقليل عدد البشر بالحروب) وقد اتخذ مالتوس الدليل من زمنه أواخر القرن الثامن عشر فقال^(١) : « إن الإنسان يقوم في وقت واحد بأمرين هما قوام حياته وبقاء جنسه ، فهو (منتج للأشياء) و (الأولاد) . وهو ينتج الأشياء بجهد وتعب ، ويأتي بالأولاد بسرور ولذة ، فهو محمول إذن على زيادة نسله أكثر من زيادة منتوجه . فينبغي السعي لدرء هذا الخطر وما دواؤه إلا (تقليل النسل) .

ولم يكد مالتوس ينشر في الناس كتابه عن نظريته في تحديد النسل وإفناء ما ربا على المجتمع ابتغاء الرفاهية للبشر ، حتى هبّ في وجهه معاصروه من (علماء الحياة) و (جهابذة الاقتصاد) فسفهوا رأيه وعدوه مخالفاً للإنسانية ، ولم يترشوا في أمره ، بل أوغروا عليه صدور الناس . وحمله أبوه على هجر نظريته ورماء بالعقوق ، فقارقه وبقى على رأيه مقبلاً حفيظاً . فتذكر له المجتمع إلا قليلاً من العلماء الذين ترشوا في أمر رأيه حتى قبلوا وجوه الصواب فيه ؛ إذ قاسوا البشر عليه في ماضيهم الغابر وحاضرهم ويومهم الآتي ، ففضّلوا على

(١) الموسوعة الفرنسية الكبرى للشيخ برتيلو ورفاقه الجزء ٢٢ ص ١٠٧٨

غِراره وكان منهم (داروين) ، وانبرت الأقلام على صفحات الصحف
بالطعن على (مالتوس) أو الذب عنه ، وجر ذلك إلى سجن بعض المهاترين
من أشياع الفريقين (١) .

وجاز مذهب مالتوس حدود بلاده إلى فرانسة فتلقفته معجبة به راضية
عنه كل الرضا . وأقبلت الأسر الفرنسية على اعتناقه فسرى فيها تحديد الفسل
وكان من شغف المرأة الفرنسية المترفة أن اتخذته وسيلة إلى دوام جمالها
وإطالة الأمد على صباها ببعدها عن الولادة ، ورضى به الرجال المتزوجون
حرصاً على الثروة من أن يأتي عليها التوزيع بالميراث ، لأن مضيعتها بكثرة
الأولاد الوارثين . وأحبها الأزواج الفقراء لخوفهم أن يحرثوا البؤس على
أبنائهم في الحياة . فأعرضت الأمة الفرنسية باختيارها ، عن كثرة المواليد
ونقص عدد نسبائها نقصاً مروعاً وجر هذا المذهب عليها تلك الجملة التاريخية
التي فاه بها الماريشال (بيتان) بعد هزيمة فرانسة وهجمة الجرمان عليها في
عصرنا هذا ، فبكى على مصرع قومه وهو يقول : (. . . وقلة في المواليد) .

تسربت هذه النظرية إلى رؤوس علماء الاجتماع في أوربة فقال
عُلاتهم بتنقية الأنسال ، وشجعهم هذا الرأي على المطالبة بإفناء ذوى العاهات
الزمنى ومن لا يرجى لهم طيب صحة وعافية ، ومن يحملون في دمائهم الأدوية
الويلية لأنهم شقاء البشرية وشقاء أنفسهم معاً .

وأقبل العصر الحاضر وإذا (المالتوسية) تحتل مقاماً جليلاً في علم الاجتماع
الحديث لسكنه مقام مخوف بالمناقشة والنقد والشرح والدحض .

❖ ❖ ❖

قلت أكان (مالتوس) يعرف البرية ، أو هل سمع بشعر المعرى أو
ترجم له ؟ وهل أجال الطرف ساعات في اللزوميات ، فقرأ مثل هذين البيتين :
لو هب سكان التراب من الكرى أعيان المحل على المقيم الساكن
لغدوا وقد ملأ البسيطة بعضهم ورأيت أكثرهم بغير أماكن

وهل استل نظريته من أبي العلاء - مع شيء من التعديل - من نقده للمجتمع الذى يرمى بأنسالة كأنها الصييب أو السيل الجارف .
إن صح اطلاع مالتوس على نظرية المعري فى النسل ، كان أبو العلاء أستاذه فى (علم الحياة) وإمامه فى (النقد الاجتماعى) . وإن يكن مالتوس قد ابتدع المذهب أو ارتجله ، فإن شيخ المعرة قد سبقه إلى أوغل من ذلك وأقصى .
يرى أبو العلاء أن الحياة قد عمتها المصائب منذ عهد آدم وأن الإنسان على الأرض قد حمل فى العيش أعباء الفقر والمرض والهمم والبلى ، وأثقال العدوان وآلام القتال ، حتى فسد السكون من أطرافه ، وأخذ به الضلال من أصوله . فباتت الإنسانية فى حماته شقية معذبة فلا ينقذها إلا الموت العميم ولا ينجيها سوى قطع المواليد .

وقد هيساً له نقده للمجتمع أن إباده خير من إصلاحه فأبدع فى دهر الجماعات هذا المذهب بدعة فتك . وأخذ فى عهد عزلته عند نظم اللزوميات يحشوها فى كثير من المناسبات بهذا رأى الخطر الذى يهدم العالم من أس أركانه ، ويأتى على حضارته وعمرانه فقال :

لو أن كل نفوس الناس رائية كراى نفسى تناءت عن خزايها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزايها
ولو أننا أبدلنا كلمة (التعطيل) بكلمة (التقليل) لزعمنا تناسخ الأفكار ،
وقلنا بالحيولة بين مالتوس والمعري على الرغم من زمن قد فصل بينهما باثنين
وعشرين وثمانمائة عام .

نقد أبو العلاء المجتمع بنظريته فى النسل كما نقده مالتوس . فالفقر فى نظر المعري والحرمان والشقاوة هى الأسباب التى حملته على هذا رأى والجهر به وقد عاين فى الشام الإدقاع وشاهد المتربة فى المعرة . وكان يقول : « ولم أكن ذا ثروة فكيف الحدا بغير بغير » (١) وهالته القلاقل والفتن واضطراب

(١) رسالته الى أبي نصر الفلاحى طبع ببيروت ص ٩٧ وأكسفورد ص ٢٤

المجتمع في عهده . وتلك علامات التفكك والانحلال . فأمسك بالعلّة الاجتماعية الكبرى من منابعها وأقبل على استئصالها من صلبيتها فقال (بنى النسل) وعنف كل ناسل ، وزين للرجال البعد عن الزواج ، فأراهم جنابة آدم على البشرية بمثل قوله :

أ كان أبوكم آدم بالذى أتى نجياً فترجون النجاة بالنسل
وأكثر من ذكر هذه الدعوة في لزومياته ، وكان يعلل أن الإنسان قد
وطن نفسه على المكاره بإتيانه النسل ، ولو كان حازماً لما نسل فقال :
كل على مكروهه مبسل وحازم الأقوام لا ينسل
وكان يدعو الناس إلى شغل جدى فيه نفع للمجتمع ، وينهاهم عن اشتغالهم
بالزواج والتوليد . وكـ أطال القول في أن الأب يحنى الشر على ولده بحبله
إلى الدنيا فقال :

فدونك شغلا ليس هذا لعله يعود بنفع لا كـشغلك بالنسل
أبوك جنى شراً عليك وإنما هو الضب إذ بسدى العقوق إلى الحسل
فعد الأب بحبله ولده إلى جحيم الدنيا إنما يحنى أذية فكأنه الضب الذى
أكل أولاده فأسدى إليهم العقوق بديلاً من الحنان . وقد يرى أن الأب
لا يزال جانباً على ولده ولو كان ولده ملكاً أو خطيباً :

على الولد يحنى والد ولو أنهم ملوك على أمصارهم خطباء
وكانت لأبى العلاء رجعات إلى التوسط فى الرأى والتخفيف من النقد
الحنيف ولعله حين قرأ فى ذهنه أن المجتمع سيعرض عن دعوته المبيدة فى
وقف النسل وقطعه . وسيسفّه رأيه فى نقده للزواج والمرأة ، خفف من
هجمته فأقر بأنه لا بد للمرأة من زواج ، وأن الزواج لا بدّ فيه من النسل ،
فغضّ من غلواء نقده بعض أمره ودعا إلى التزويج بالمرأة العقيم ، ورضى
بالنسل النافع ، ثم لم يلبث أن عاد إلى غلوه واستقصائه فى نظريته فقال :
خير النساء اللواتى لا يلدن لكم فإن ولدن فخير النسل ما نفعا
وأكثر النسل يشقى الوالدان به فليته كان عن آبائه دفعا

وقد جرّ عليه شذفه بأبي الطيب أن أخذ بآرائه ؛ أفلم يسبقه المتنبي إلى سرد الأهوال الاجتماعية ونقدها في شعره ، فكان سبّاقاً إلى خاطرة النسل والإبادة الجنسية وكأنه ندم على نسله لابنه محمد فكان يقول :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشواق فيه إلى النسل
وكان المعري قد توقع لصرخته هذه أن تمضى مع الريح ، فترك الناس في نسلهم أوفى عقمهم . وقد استوى عنده النسل الأريب والنسل الخبيث فقال :
أنسّل أو اعقم فالتوحد راحة سيان نجلك والخبيث الناسل
أما هو فعاد على نفسه يأخذها برأيه حين لم يستطع أن يأخذ به أحداً
فرغب عن النسل ولو كان بنوه أفضل أهل عصره فقال :

لو ان بنى أفضل أهل عصرى لما آثرت أن أحظى بنسلى
وقطع ما بينه وبين آدم الأسباب :

تواصل جبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامى بام
فلئن كان لكل مذهب غلاة ومتوسطون فإن المذهب الاجتماعى لأعداء
النسل متجاذب بين مالتوس وأبي العلاء . هذا من غلاته وذلك من المتوسطين
فيه . وإنى جدت بينهما مطابقة تامة فى رأى واحد يكاد يكون هو قوام
(النظرية المالتوسية) وهو قول أبى العلاء :

إذا (كثر الناس) شاع الفساد كما فسد القول لما كثر^(١)
قال أبو العلاء بقطع النسل استئصالا لفساد العالم . والفساد حسب
قصده قد عم أخلاق المجتمع . أما مالتوس فقد صب قصده أولاً على الحياة
الاقتصادية ، ثم على فساد الأخلاق واضطراب الجماعات بسبب كثرة الأنسال .
فاستوى والمعري على صعيد واحد فى (كثرة الناس) وما (كثرة الناس)
سوى (نظرية السكان) التى جاء بها مالتوس .

فأنا أخلص من هذا البحث إلى التقسيم الآتى :

١ — أبو العلاء بنى نقده للنسل على الأخلاق والمصائب الطبيعية .
فالبؤس والحرمان وفساد الخلق والفاقات وكل ما يمكن توقعه على الإنسان
من الأدواء والمصائب والحروب حملت المعري على القول بقطع النسل .
وعنده أن الإنسان مجبول بالبأساء والضراء مذدبت فيه الروح وهو جنين
لا منذ زالت عن رأسه مشيمة الأجنة عند مولده فقال :

وما برح الإنسان في البؤس مذجرت به الروح لانه زال عن رأسه الغرس
ب (أبو العلاء يرى « كالتوس » حدوث الشيء بالشيء أن كثرة السكان
تشيع المفاسد الاجتماعية .

ج (مالتوس لم يسبق المعري إلى إيجاد هذه (النظرية البشرية) وإنما
خفف من غلوها فقال بتحديد النسل فتوسط في نظريته بين وجود
النسل وعدمه .

د (أبو العلاء في قضية النسل والسكان ذو (نظرية أخلاقية اجتماعية) .
هـ (مالتوس في قضية النسل والسكان ذو (نظرية اقتصادية اجتماعية) .

(٣) الزواج عند المعري

الزواج ضرورة إنسانية . بل هو أكبر رابطة اجتماعية وأكثرها دواما .
وقد كان من طبيعة شكله أن يتحمل فيه المرء واجبات وتبعات قد لا تحصى .
حملت عليه الضرورة ، لأن الغرائز المركبة في البشر تؤول إليه وتحمل عليه .
ومضى في سبيله الإنسان منذ خلق على البسيطة مرتبطاً بمواثيقه التي عززتها
الآديان وحمتها الشرائع .

لم تدع إليه الإنسانية لمطالب السرور فحسب ، وإنما رُكِّبت فيه هذه
الغرائز وسيلة لبقاء النوع الإنساني . وقطافاً لثمره المواليد .

وأهل الحصافة يتلاقون في رأى حول الزواج ، ويختلفون في آخر .
قالوا بتغيير نظامه ، ونقدوا طريقه ، وأحبوا له المثالية والكمال ، ولكن لم

يقول واحد منهم بنفيه وإلغائه كما قال أبو العلاء . لأن بالغائه إفساد الحياة ، واختلال السكون الاجتماعي . وليس مقصود أبي العلاء في إلغاء الزواج هدم الأسرة وإبطال (العائلة) ، ولو كان ذلك رأيه لكان من غلاة أهل الفوضى الاجتماعية^(١) الذين عرفوا في دهرنا هذا وهم من ألد الخصام للصلات الإنسانية المرضية ؛ ولكن أبا العلاء يرمى من أبطال الزواج إلى نفي الصلة بالمرأة أصلاً ، فصمم نقده في قلب الزواج دره للأولاد ؛ لأن الزواج وسيلة إيجادهم في الدنيا . فهو ينفي السبب من أجل المسبب . وجه نقده بادية الرأي ، على مطلق الزواج . فنجمع الأوانس وهن فرحات ، عليهن أزهى الثياب في يوم العرس فقال :

إن الأوانس أن تزار قبورها خير لها من أن يقال عرائس
ونصح الأم بأن تشغل بنتها بالمغازل والمناسج بدلا من أن تزينا
بالأساور والخلاخيل لتروح إلى العرس فقال :

ولا تلبسى الحِجَاجَيْنِ بِنْتُكِ والبرى لتشهد عرساً وأشغليها بعرناس
قال هذا للمرأة العروس ومشاهداتها ، ولم ينس الرجل وهو مقبل على
زوجه ليلة عرسه ممتلىء القلب بالأمل يريد السعادة الزوجية ، فصاح به منذراً :
عروسك أفعى فهب قربها وخف من سليلك فهو الخنثى
أشبع المعرى مراد نفسه من نقد خالق المرأة وتجرى طبيعتها . ومن القول
بتعطيل الوجود بالغناء النسل والتوليد . وبقي عليه شوط واحد في حلقة نقده
التي ضربها نطقاً على الغريزة الإنسانية . وهذا الشوط هو نقده للزواج .
رأى الزواج قضية مقضية وأمرأ محتوماً . فحاول نقده من وجوهه
(العملية) فباشر نقد المظالم الاجتماعية التي يسببها ضرب من ضروب الزواج .
وهو اقتران الرجل المسن بالشابة . فكان يرى أن اللعنة تحل بالشيخ حين
تؤلف إليه الرود الحسناء . وكأن المعرى يسن للزواج قانوناً ، فينص فيه على

اقتران ابن الأربعين بالنصف من النساء أو السكلة المجربة وابن الستين
بالعجوز فيقول :

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب — إليه فقد حلت البهله
فلا يتزوج أخو الأربعين — إلا بمجربة ككهله
رأى الشيب في عارضيه المسن — فنعيم القريب له الشله

وينقد أبو العلاء الفساد الاجتماعي الذي ينشأ عن اقتران الشيخ بالشابة
فيعلل سبب الفساد في أدق ناحية أخلاقية في حياة الزوجين الاجتماعية .
ولكم جر هذا الضرب من الزواج انحلالاً في كيان الأسرة . فما تزوج شيخ
هرم ، كما يقول أبو العلاء ، بصبيبة إلا كان كالجمل الساقط في وحل وقد صعب
عليه المسير . فعرسه في تعب مقيم ملت عشرته الجافية فليست تنزين له ، وباتت
ترتقب زواله وارتحاله . وتعلل نفسها بشباب تزف إليه بعده ، وهي تعلم أن
زواجها بالشباب هو الملال . فيصف أبو العلاء هذا الشقاء الزوجي بقوله :

تزوج الشيخ فألفيته كأنه مثقل إبل وحل
وعرسه في تعب دائم لا تخضب الكف ولا تكتحل
ملت وإن أحسن أيامه تقول في النفس متى يرتحل
لو مات لاستبدلت منه فتى إني أراه محرماً لا يحل

وكانت هواجس أبي العلاء في شعره ؛ مشبهة لخواطره في نثره فطرح هذا
الانتقاد الاجتماعي في مطارح (رسالة الخضران) فن مجاذباته لفنون الرأي
مع ابن القارح ؛ أن ابن القارح (يريد التزويج) . وأبو العلاء يعلم أن صاحبه
الخلبي قد أوفى على الستين ، فعلام زواجه . فجعل المعري ، بما أوتيته من فن
في النقد الساخر يدل إلى علي بن منصور بسفاهة الزواج بعد هذه السن . ثم
يذكر من حيز هذا الزواج من القالة والشعراء ، ومن مدح الزواج بالمسنات
والعجائز ، حتى ضرب المثل بزواج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة . وانتهى من

مباشطته هذه إلى بث فكرة العزلة في نفس ابن القارح وتحيينها إليه فقال^(١) (وقد تحدث بعض طلاب الأدب أنه، أدام الله تزيين المحافل بحضوره، ذكر التزويج . فسرني ذلك فسرني ذلك . وهو يعرف ، إذا بلغ الرجل الستين فأياه وإيا الشواب) .

وكأنه يصف لابن القارح الزواج بامرأة نصف ليدفعه عن خطبة الشابة فيتخذ لإقناعه آية القرآن الكريم فيقول ، (ولكن النصف ممن يوصف « لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون) . ثم يأخذ في التهم بآبن القارح وقد هم بالزواج من كهلة أو عجوز فيجعله تتسابق إلى خطبته العجائز والسكهلات فيقول :

(ولو نشط لهذه المأربة لتنافست فيه العجُز والمسكهلات ، لأن العاقلة ذات الإحصاف^(٢) تجنب إلى معاشرة الإنصاف) ثم يتبع عنه (فليس بأول من طلب عجوزا ، فتزوج على السن عجوزا كما قال — الأول — :

إذا ما أعرض الفتيات عني فمن لى أن تساعفني عجوز
كان مجامع اللحيين منها إذا حسرت عن العرنين كوز
وقفي أبو العلاء على آثار هذا التهم الظاهر بشواهد من الشعر والخبر على امتداح الزواج بالعجوز الحيزبون . فإذا أفرغ في هذا السباق جعبة سخريته للأديب الحلبي ؛ لمزه لمزة أخيرة حفية المطعن بادية المأرب من أنه كان له في مصر جوار عديدات ، أفما كفيته ؟ فقال^(٣) :

(ولا أشك أنه قد استخدم في مصر أصناف جوار ، هنَّ للمأرب موار)
وخلص من هذه المباشطة إلى بث فكرة العزلة في نفس ابن القارح بقوله :
(وأن يخدم نفسه الوحيد خير من أن يلج بيته العبيد^(٤))

(١) رسالة الغفران طبعة هندية بمصر سنة ١٩٠٣ من ١٧١

(٢) وردت في كل النسخ التي رأيتها بالحاء والصواب بالحاء من أحصاف عقله كحصف

(٣) رسالة الغفران من ١٧٢

(٤) من ١٧٣ طبعة هندية .

لم يقل أبو العلاء بتحديد النسل ، لأنه كان يريد نفي الأصل . فكيف يقبل بوجود الفرع . لكنه تسامح في الزواج . فعند المرأة العقيم أصلح زوج . وكيف دار الأمر ، فلئن فاته أن يقول بتحديد النسل فلم يفته أن يقول (بتحديد الزوجات) . فنقد بسخرية حالة من يتزوج ثلاثاً ثم أبان قلق الحياة الزوجية وتسلسل الريبة إلى نفس الزوج إذا مالت إحدى أزواجه إلى صاحب ، وما يقع فيه زوج الثنتين من حيدة عن الحق والعدل بين زوجيه فقال :

تزوج بعد واحدة ثلاثاً	وقال لعمره يكفيك ربيع
فريضها إذا قنعت بقوت	ويرجمها إذا مالت لتبع
ومن جمع اثنتين فماتوخي	سبيل الحق في خمس وربع

وصرح بتحديد الزوجات (بواحدة) حين عد الزوجات كالأعداء للزوج فقال :

إذا كنت ذا ثنتين فاعد محارباً عدوين واحذر من ثلاث ضرائر
وإن كنت غراً بالزمان وأهله فتكفيك إحدى الأنسات الخرائر
ومن كان ذا (نظرية) كأبي العلاء ، أعادها في الذكر وأعقب شرحها في كل سانحة من قوله . فهو إذ يرى نظام الزوجية فاسداً ، يرى منتوجه أعم فساداً . إنه ليلخ بنقده أصل زواج الإنسان فيصعد إلى آدم وحواء قائلاً في زواجهما :

كأن حواء التي زوجها آدم لم تلقح بشخص أريب

الفصل الثالث

المعري في ميزان (فرويد) (١)

لا تثريب على علم النفس في أن يتناول أبا العلاء ؛ فيمضي في أغوار نفسه يحس أنباضها ، ويفوص إلى أعماقها . وما كان لأبي العلاء مهما غلا في التقية وآثر البعد على المستطلعين أن يبيت في نجوة من مسابر عالم حديث وضع كواشفه على النفوس فخلل ذراتها ، ومشى بمبضعه على الأرواح فشرح مواضع الداء فيها .

ذلك العالم هو (فرويد) الذي يتخلص مذهبه في علم النفس الروحي بأن الغريزة هي علة الاضطرابات العصبية ، وأن ما يخزنه العقل الباطني في جميع مراحل العمر هو الذي يؤثر في الإنسان ويهيمن عليه . وهو يرى أن العقل الباطني إنما يمثل رغبات النفس الحقيقية . أما العقل الواعي فيمثل رغباتها العرفية التي أقرها المجتمع وارتضتها التقاليد . وإن ذلك الصراع الذي ينشأ بين رغبات العقل الباطن ورغبات العقل الظاهر هو الذي يسبب القلق الروحي . فإذا ما نجحنا في إطلاق الغرائز المسكوبة من عقاها ؛ فقد بلغنا المأمول في توفير الهناء المعنوية للنفوس الطامحة الظمأى .

فهل على نور هذا المذهب الروحي أستطيع أن أحلل نفس أبي العلاء المعري بمذهبه في المرأة والغريزة الجنسية الناسلة والزواج .

يقول (فرويد) (٢)

(وإن استولى على الانسان كرب فينبغي أن يكون ثمة سبب باعث عليه وما من كرب لزم أمراً فعم أموره إلا كان منوطاً إلى حد عظيم بأسباب

(١) سيغموند فرويد عالم نمساوي ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٩٤٠ . انبسط شهرته بمذهب (التحليل النفسي) وغدا فيه فيلسوفاً عالمياً .

(٢) المدخل الى علم النفس التحليلي تأليف فرويد طبعة بايو بياريس سنة ١٩٢٦ ص ٤٢٩ .

الغريزة الجنسية . ولقد تحور في نفس المرء بواعث جنسية لا يرتوى ظمؤها فتغور في أعماق نفسه ويطفو مكانها كرب عقيم).

ويقول شراح مذهب فرويد^(١) : (إن الصراع القائم بين الطبيعة العادية والغريزة الجنسية يؤدي إلى واحد من اثنين . إما ظفر بالذات ، أو انتصار الرغبات . فإذا كتب النصر للأمر الثاني تلبس صاحبه بشباب سوداوى المزاج . ولقد يبدو هذا الإنسان بمظهرين : واحد سفلى واطيء ، وآخر عال رفيع . وأهل العلو والرفعة يتخذون الهيام بالآداب واعتناق الزهد والهروب من الناس خلة لهم وديداً) .

ويقول فرويد في كتاب له آخر^(٢) (ينبغي لنا أن نعتبر كبت الغريزة الجنسية باعثاً من بواعث العلو النفسى) وهو في فاتحة كتابه هذا يقول^(٣) (كما يطلب الجسم الطعام فيحس (بالجوع) كذلك تطلب النفس الغريزة الجنسية وتشعر بالجوع فيها) .

وقد هجم النقاد والفلاسفة على فرويد بالأقلام الحداد وبصرعات الحناجر ليهدموا مذهبه ويفندوه . فعده دعوة إلى تشریح الأخلاق والكشف عن خبايا النفوس وهتك ما اصطالح عليه الناس من العادات وما قدسوه من الفضائل . فأجابهم بما أحم حججهم . وكان يقول إنه لم يك مبتدعاً لهذا المذهب وإنما هو مطبق له وشارح لمعضلاته ، فقال مدافعاً عن نفسه^(٤) .

(ليس عنا ببعيد ذلك الزمن الذى أظهر فيه (شو بنهوير) للناس أن كل حميتهم في الحياة منتوج الغريزة الجنسية) .

فهل على من خرج بعد أن عرضت مذهب فرويد في الغريزة الجنسية

(١) معلمة القرن العشرين بالفرنسية الجزء الثانى ص ٦٣٨

(٢) ثلاث تجارب في نظرية الغريزة الجنسية ، الطبعة الثانية والثلاثون . طبعة فايمار

بياريس سنة ١٩٣٢ ص ١٧٧

(٣) ص ١٩

(٤) ص ١٥ من الكتاب السابق .

هذا العرض أن أتساءل :

ما هي نفس أبي العلاء في هذا المذهب ؟

حين شب المعري وأدرك الرجال لم يكن متشائماً في حياته . فقد كان في
معرفة النعمان يضرب فيما يضرب فيه الفتيان والرجال المرحون من طهو لطيف
بحسب إلى النفوس ، فكان (يلعب الشطرنج والترويد ويدخل في كل فن من
الجد والهزل)^(١) .

وكان يقول في مراح هذه الفتوة وهجمة ذلك الشباب :

رب ليل كأنه الضبيح في الحسن وإن كان أسود الطياسان

قد ركضنا فيه إلى اللهو لما وقف النجم وقفة الخيران

فهرب النوم عنه في ليلة كانت كالعروس فقال :

ليلتي هذه عروس من الزنج — عليها قلائد من جمان

هرب النوم عن جفوني فيها هرب الأمن عن فؤاد الجبان

وكان يعرف أوصاف الهوى فيحسنها بقوله :

وكان الهلال يهوى للثريا فهما للوداع معتقان

إلى هذه الفترة التي كان أبو العلاء يقول فيها مثل هذا الشعر ويلعب

بالشطرنج والترويد كانت نفسه منطلقة كأنفس الناس تدخل في كل فن من

الهزل أو تخرج منه إلى الجد . يسهر صاحبها في طهو وأنس ويحيد أوصاف

الهوى ويتقن تصوير الهائمين فسهيل أحمر كوجنة الحبيب وخافق كقلب المحب :

وسهيل كوجنة الحب في اللون وقلب المحب في الخفقان .

ولكن نفس أبي العلاء بعد هذه الفترة قد تغيرت وكأنها بدلت نفسا

غيرها . فينبغي أن تكون تمة أمور في حياته لها صلة بتغير نزاعته وانقلاب

طبعه . وتلقا ذلك سألت نفسي الأسئلة الآتية فيما يخص نزاعته في الغريزة

الجنسية :

(١) أكانت في حياة أبي العلاء (امرأة) على نحو ما تكون النساء في

حياة العبقرين ؟

(٢) أكان يميل إلى النساء ويحسّ بهذه الغريزة الحيوية التي يحس بها غيره من الرجال .

(٣) هل كانت نغمته على المرأة ونقده العنيف لها وحى انتقام منها .

* * *

إن المسلم بوجوده في الطبائع هو أن أبا العلاء لم يكن محروماً غريزة الميل إلى المرأة . فقد أثر عنه غزل في شعره الأول الذي قاله في (سقط الزند) « وهو شعره في الدهر الأول »^(١) بديار الشام وفي أيام الشامية . وفيه غزل بالمرأة رقيق وهو قليل . أفليس يقول في هذا الشعر وفي هذه السن إنه ذكر (أمانة) في أرض مضيعة حين ضل بهم الدليل ، ونزل يستاف التراب ليعلم أية يسلك ، وكان المعرى يحمل في هواها عنتاً وشجراً ، فيقول^(٢) :

ولقد ذكرت يا (أمانة) بعد ما نزل الدليل إلى التراب يسوقه
فنسيت ما كلفتني وطالما كلفتني ما ضرتني تكليفه
وهواك عندي كالغناء لأنه حسن لدى ثقيله وخفيفه
فمن (أمانة) التي ذكرها في هذه الأبيات من شعر شبابه ، وكانت تحمله في الهوى ما أتعبه وأضره . وكان من دماء حبه مصابراً فيه مستحسناً له يحده كالغناء ، مطرباً في لحونه الثقيلة ، ولحونه الخفيفة .

ومن يدري ؟ فإن هذه الأبيات تدلني على حادث حب كان لأبي العلاء مع (أمانة) هذه . وأن أمانة كانت تتجنى عليه . وطال منها تكليف أبي العلاء في الحب التعب والمشقة .

ثم ، أخاتته تلك المرأة فلم ترغب فيه وفاتت حبه فما عادت تقبل عليه . فإن يك شيء من هذا في حياته فعلام لم يذكره في شعره ويعالني به الناس ؟ .

(١) معجم ياقوت الروي ج ٣ ص ١٥٤

(٢) سقط الزند طبعه المعارف مصر ص ٣٧

والظاهر أنه أثر كتمان هذا الأمر في سيرة حياته . وإنى لأعجل هذا بتربيته التي لقيها من أهله وهو صغير ويافع .

فأبو العلاء لقي من أبيه وأهليه منذ طفولته تهذيباً وتقويماً . ونشأ في بيت قضاء وفقه وأدب وعلم . فكان يحكم هذه النشأة وتلك التربية مباحداً عن حديث الهوى الصريح ، وعاقبة ذلك الحب العنيف الذي تحمله من (أمانة) .

وينبغي أن نقف عند أبيات غزله وقفة استنباط واستقراء ، ونحن مكثرئون بها على قلتها كما وقف النقاد بأبيات قلائل لأبي العلاء حاولوا بها اكتناه عقيدته التي بقيت لديهم إلى اليوم موضع تحقيق . على أن بقية آثار أبي العلاء لم تصل إلى أيدينا ولعلها لا تخلو من إشارة إلى عهد صباه يستطيع المطلع عليها أن يلقى نوراً جديداً على ذلك الغزل الذي مر به شعره في فترة من فترات حياته . ولعل لتلك المرأة أثراً في حفز أبي العلاء إلى السمو الروحي والمجد العقلي . فقد اتفق علماء النفس على أن من الآلام والخفيات حوافز للعبقريين . ونجد الشواهد على هذا عند كثير من أفذاذ العقول وأهل البيان . أما ما يتعلق بغريزة أبي العلاء الجنسية فالمفروض أنه كان إنساناً كامل الخواص ، ماعدا النظر ، سليم النزعات الجسمية . وإذا كان التصريح بذلك يتحاشاه الجهلاء فضلاً عن العلماء أمثال المعري فإننا لا نرى له شعراً يعبر فيه عن نوازعه في الغريزة الجنسية . ويدلني أنه لم يكن يحفل هذه النوازع تصويره لها في أفعال غيره من الذين ينقدهم ويحلل أخلاقهم وميول أبدانهم ويصف شهواتهم وأهواءهم الغريزية .

فن نصائح في آداب الجيران يوصي المرء بغض النظر عن جاراته ثم يذكر (جنى الشباب) و (سوء الغريزة) فيقول (١) .

ولا تبغين لحة في الحياة — إلى جارتك إذا كتا

فلولا مخافة جن الشباب — وسوء الغريزة ما جنتا

فأبو العلاء كائن الغريزة ومن هاهنا يستطيع (المذهب الفرويدي) أن يحلل نفس أبي العلاء من وجهة الغريزة فيسأل :
أين غريزته الجنسية ؟ فيجيب نفسه على سؤاله هذا بأن غريزة أبي العلاء استسرت ثم (كُـبِـتْـتْ) .

كذلك كتبت غريزة المعري فتغلغلتم سموها خلال نفسه حتى ظهرت في شعره عن المرأة في اللزوميات ، كداء عبياء قد غار في تضاعيف جسم ثم ظهر قروحاً فوق إهاب الجسد .

لقد نطقت نفسه في لزومياته عن الهوى ، ولم يك كلامه وحيأ يوحى .
وكانت غريزته الجنسية (المكفوفة) أسيرة في جسمه كما كان جسمه أسيراً في معتزله . ففي خلال هذا السجن المضاعف نظم أبو العلاء أشعاره في تجريح المرأة ونقد أخلاقها وطبيعتها ، فأشعر - في حملاته هذه عنفه في نقده وتقصّيه المرأة في أكرم شيء لديها وأعزّه عندها ، وهو النسل والزواج .

وكذلك اضطرعت في نفس أبي العلاء - حسب مذهب فرويد - طبيعته العادية وغريزته الجنسية ، فظفرت الأولى على الثانية . واصطلحت عليه الأحزان في ضيعة الأمل ببغداد وضيق اليد وقلق البال في الشام فأدّى به كل ذلك إلى اعتناق الزهد والهروب من الناس لحفزه كل هذا إلى العلو والتسامي .

ولم يسلم من يعتزل الناس من أن ينظر إليه (فرويد) نظرة نفسية ، لأن العزلة مرض نفسي لمخالفته للقياس الاجتماعي .

وأبو العلاء اعتزل الناس وعالهم بنيتهم فكان أول ما ندّ منه في هذا الشأن أن كتب رسالته إلى أهل المعرة يقول فيها (١) :

« بعد أن قضيتُ الحداثةَ فانقضت ، وودّعتُ الشبية فضت ، وحلبتُ الدهرَ أشطره ، وجربتُ خيره وشره ، فوجدتُ أوفق ما أصنعه في أيام

(١) رسائله بيروت ص ٨١ وأكسفورد ص ٣٤ .

الحياة عزلة . . . فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد جلالة على نفر يوثق بخصائهم فكلهم رآه حزماً ، وعده إن تم رشداً . وهو أمر أسرى عليه بليل . . . ليس بنتج الساعة ولا ريب الشهر والسنة ولسكنه غنى الحقب المتقدمة وسليل الفكر الطويل .

وذكر ياقوت في معجم الأدباء أنه أملى قوله :

« لزممت مسكني منذ سنة أربعائة واجتهدت في أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده فأملت أشياء تولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبيد الله ابن أبي القاسم أحسن الله معونته . »

وليت شعري ما الفرق بين معتزل أبي العلاء وقد توفّر على تسبيح الله وتمجيده وبين الديارات التي يعتزل فيها الرهبان عالم الدنيا ، ويتوفرون فيها على الصلوات والنسب . وفي الديارات رهبان وراهبات تركوا وراء جدرانها عهود الصبا وأيام الشباب . وكانوا في الحياة مثلنا يحبون ويغضون ، ويلعبون ويلهون ويخرجون من جدد إلى هزل ومن هزل إلى جدد كما كان يفعل أبو العلاء في عهود صباه وأيام شبابه .

قف بكل واحد منهم وحلل نفسه واقرأ صحيفة ماضيه تجد فيها سطوراً كتبت الحادثات فيها الحب وشقاءه ، والمرأة وخيانتها ، والأمل وضياعه ، والطغاة ومظالمهم . تجد دنيا من الخطوب قامت على ساق وقدم . هرب من جحيمها هؤلاء جميعاً ونزلوا الأديار ينسون المواضي السكينة ويستقبلون بقية العمر بالتوفر على تسبيح الله وتمجيده وقد زهدوا في الملذات والنسل والزواج .

فإذا تصورنا هذه الديارات عدنا إلى المعرة لا نرى فيها ديراً وإنما لنشاهد فيها بيتاً صغيراً (ينزل إليه بدرجات ويقوم عليه سابط) جددته في هذا الوقت الحكومة السورية وخلعت عليه من الرونق والتقدير ما يناسب قيمة أبي العلاء . كان هذا البيت معتزل أبي العلاء . بل كان سجن نفسه

ومحتبس كهولته وشيخوخته . لقد لجأ إليه ليغسل روحه من أوضار الزمن . وينفض عن نفسه غبار الحوادث . نزله لا لينسى الماضي كما فعل الرهبان ؛ وإنما ليذكر هذا الماضي بما فيه من ضيعة أمل في السَّفْرة البغدادية وما فيه من تجمُّع المجتمع وفساد الأخلاق وضلال العالم ، ومظالم الحكام ، ومناوشات الأعداء . ولم تكن عزلته تسبيحاً لله وتمجيداً فخسب كما اتوى ؛ وإنما كانت فلسفة ونقداً وشرأ وشعراً . وكيف اتفق أمر أبي العلاء فيانه أثر العزلة في الدار ، إيثار الرهبان للأديار . ولم ينبج في عزلته من وساوس الجسم ، ونداء البدن ، وكانت غريزته الجنسية المسكوتة الغائرة في سرائر نفسه ؛ تطفو حيناً بعد حين ، فيدفعها إلى أعماقها فتفور ثانية حيث كانت خافية . وقد صارع وكشف عن وصف غريزته حين كتب إلى خاله فقال (١) : « وأنا كما علم ، أدام الله تأييده ، وحشيت الغريزة إنسي الولادة » . وبدافع من هذه الغريزة الوحشية تجنب المجتمع الذي راح يطيل القول في انتقاده ، وفي خلال لزومياته ذكر مذهبه في العيش والحياة واعترف بأنه ككل الناس يعيش عيشهم ويحبب كجدهم ويلهو كلمهم :

إذا سألوا عن مذهبي فهو هيئتٌ وهل أنا إلا مثل غيري أبله
خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجده كما جدوا وألها كما ألها
ولولا خوفه من المقام الذميم وسوء العقبي لعاش الزانيات فقال :
زواني خوفُ المقام الذميم - من أن أكون خليل الزواني
وعنده سرُّ أبائته الغواني بالسكناية كقوله :
وعندي سرٌّ بذى الحديث - كنتُ عنه في العالمين الغواني
إذن كان أبو العلاء في معتزله (مكبوت الشهوات) وبهذا ظفر لمذهب
فرويد الذي لا تستعصى عليه النفوس عند تحليلها . وكنت أدعو أن يمكنني
العلم من نفس أبي العلاء ؛ حتى وجدته يقرُّ في لزومياته بهذه الصراحة :

تتنازعني إلى الشهوات نفسي فلا أنا منججٌ أبداً ولا هي
وبقوله بأنه أعرض عن اللذات لما لم تُقبل عليه خيار هذه اللذات
والشهوَات :

ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عني شمسنة
ولو أن أحاسنها وأطايها عليه أقبلت ؛ لكان له معها شأن أي شأن .
فلم تبق نفسه لغزاً أمام التحليل النفسي في البسيكولوجيا الحديثة .